ابن خلدون ومنهجه العلمي في البحث

مع بعض المقارنة بالمؤرخ الفرنسي الحديث فرنان بروديل

د. عبد الكريم اليافي

أريد أن أزيد القارىء الكريم معرفة بالمؤرخ العربي واضع علم الاجتماع أبي زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ـ ٨٠٨ / ١٤٠٦) . فلا يكاد يوجد عربي مثقف لم يسمع بهذا العالم الكبير ولم يعِ شيئاً من آرائه الاجتماعية . وانما أريد أن أذكر أولا بملامح بارزة من حياته ، ثم أعرض رأيي في منهجه الذي سلكه في مقدمته المشهورة والطريقة التي اتبعها في بحوثه عرضاً يقربه من أحدث ما يراه فلاسفة العلم في الوقت الحاضر . وقد رأيت كثيراً من الباحثين يتساءلون في اشكالية هذا المنهج ، مع أنه يتضح حين نقرنه بأساليب العلم الحديثة .

ابن خلدون رجل علم وعمل . هو من أسرة عربية حضرمية كانت هاجرت الى الأندلس بعيد الفتح وتوطنت اشبيلية حتى قرب سقوط هذه المدينة في أيدي الاسبان . فجلت عنها في أواسط القرن السابع الهجري في جملة الأسر التي جلت الى تونس حيث حلّت وحيث ولد ابن خلدون . وكان بيت ابن خلدون نهاية في علو المكانة ونباهة العلم . وكان لأفراد هذه الأسرة شأن مرموق في وقعة الزلاقة المشهورة .

نشأ ابن خلدون نشأة كثير من أمثاله في العالم العربي . فربّي تربية دينية وعلمية . درس العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية كما درس الفلسفة

والمنطق والعلوم العقلية ، فجمع بين المنقول والمعقول • وكان المغرب العربي على اتساعه يعج بالعلماء في كل ميدان ،وكان كالأندلس منتجع طلاب العلم من أوربة زيادة على طلاب العلم من أرجاء المغرب نفسه • وربما يكفي مثل واحد على هذا الانتجاع • فمن المعلوم أن العالم الرياضي الايطالي ليوناردو فيبوناتشي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي كان ابن تاجر من مدينة بيزا أتيح له وهو فتى أن يسافر مع أبيه أولا الى المغرب فدرس على علمائه الرياضيات التي كان يسميها العرب علم التعاليم ، ثم الى مصر وسورية واليونان وصقلية • ولما عاد الى بيزا نشر كتاباً في الرياضيات ترجم فيه المعلومات الرياضية وجُمل العد المختلفة وآثر الطريقة العشرية واعتمد الأرقام العربية وهو الذي أدخلها الى أوربة واستعمل الصفر أيضاً • وقد شاعت بعده سلسلة فيبوناتشي في الرياضيات •

ومن أهم علماء الرياضيات في زمن ابن خلدون أبو العباس أحمد بن محمد ابن عثمان المعروف بابن البناء (لأن والده كان بناءً) والموصوف بالعددي (لبراعته في علم العدد) وأبو عبدالله محمد بن النجار ومحمد بن ابراهيم الآبلي • وهذا من شيوخ ابن خلدون • وقد هلك أبوا ابن خلدون وبعض مشايخه في الوباء الأسود الذي اجتاح أوربة ووصل أثره الى المغرب •

برز هذا الفتى الناشيء في مختلف الميادين العلمية وجرى على آثار العلماء المسلمين الموسوعيين • فقد كانوا ينظرون الى الكون على أنه كلٌ مشتبك العناصر والظواهر • فكل دراسة لهم في ميدان قد تفيدهم في دراسة ميدان آخر ما دامت الظواهر والعناصر متصلا بعضها ببعض • ولا يعدم الكشف في جانب عوناً على ايضاح عناصر خفية في جانب آخر • يروى أنه قيل للامام الشافعي : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : اذا تحقق في علم فعلمه وتعرّض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالماً(١) •

ثم ان من خصائص العلم العربي اقترانه بالعمل . ومن بلاغة اللغة العربية أن العلم والعمل يتألف كلاهما من حروف واحدة • العلم يستدعي العمل والعمل يزيد في العلم • ومن أقوالهم : « العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل • »(٢) •

وهكذا نجد ابن خلدون لم يكد يناهز العشرين من عمره حتى اجتذبته الحياة الاجتماعية والسياسية • وكان المغرب يموج بالأحداث السياسية والصروف الاقتصادية • فلم تكد تنتهي دولة الموحدين حتى قامت فيه امارات ودويلات متنافسة من أبرزها بنو حفص في تونس وبنو عبد الواد في تلمسان وبنو مرين في فاس • وقد اتصل ابن خلدون بهم جميعاً ، وشغل عندهم مناصب عالية • رفعته أمواج السياسة حتى جعلته حاجباً أي وزيراً ثم خفضته حين اتهم بالتآمر على السلطان أبي عنان فسجن نحو واحد وعشرين شهراً •

برم ابن خلدون بتلك التقلبات والصروف السياسية في المغرب فرحل الى غرناطة بالأندلس ، ورحب به بنو الأحمر وتلقاه صديقه لسان الدين بن الخطيب ، ووفد سفيراً الى ملك قشتالة باشبيلية مقر أجداد ابن خلدون يفاوضه في مهادنة الغرناطيين ونجح في وفادته • ثم وقعت بينه وبين صديقه لسان الدين وحشة ، فرجع الى المغرب ثم قام برحلة أخرى الى الأندلس • وتجمعت في صدره خبرة واسعة نظرية وعملية الى جانب علمه ولا سيما بالتاريخ وشؤون الدول والمجتمعات فآثر الاعتزال ولجأ الى أصدقائه في قلعة ابن سلامة من أعمال بجاية وهي الآن في الجمهورية الجزائرية مفكراً ومتأملا وأكب على كتابة مقدمته المشهورة التي هي الجزء الأول من « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » وأنهاها في نحو خمسة أشهر وذلك في سنة ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م • وتدل كتابتها جملة واحدة على أن عناصرها كانت مكتملة في فكره • ثم جعل ينقحها في الحين تلو الحين ، ويتم كتابة تاريخه •

بيد أن تناحر الدويلات والامارات على الرئاسة وعلى كسب المنافع المادية والاشراف على طرق القوافل ومراكزها وكانت تعبر الصحراء الافريقية وتيسر التجارة بين الشرق والغرب والجنوب والشمال وتحمل التوابل والحرير تارة والذهب تارة أخرى كل ذلك جعله يستشرف نحو آفاق جديدة بعدما تكاملت نظراته وبحوثه ، ويستحب الهجرة الى مصر اذ كانت أكثر البلاد العربية ازدهاراً • وقد سبقته شهرة مقدمته اليها • فاستقبل استقبالا جيداً واتخذها مقاماً صالحاً بين علمائها ومدارسها وحدائقها ، واتصل بالسلطان الظاهر برقوق أول ملوك المماليك الجراكسة وقام بتدريس الفقه المالكي في بعض

مدارسها وولي في الحين بعد الحين قضاء المالكية • وأرسل الى أسرته لتلحق بـه فغرقت في الطريق البحري • ولم يبـرح مصر خلا حجة حجها الى الحجاز غب غرق أهل بيته وزيارة قصـيرة لبيت المقدس حتى هجوم تيمورلنك على بلاد الشـام ، اذ ذهب ملك مصر فرج بن برقوق لمحاربته واستصحب معه فئة من العلماء فيهم ابن خلدون العالم والسياسي والاجتماعي • ولكن الملك لم يلبث أن انكفأ مسرعـاً الى مصر لما بلغه نبأ مؤامرة تحاك عليه • فحاول بعض العلماء بدمشق تلافي الأمر ومفاوضة تيمور على الصلـح فلم يتم لهم مرادهم • وكـان منهم ابن خلـدون الذي وصف في كتابه وهو تاريخ سيرته «التعريف بابن خلـدون ورحلتـه غربـاً وشرقاً » كيف تدلى من السور بالقرب من المدرسة العادلية لمفاوضة تيمور • فعرف هذا مكانته في العلم فأكرمه وأقام عنـده نحو خمسة وثلاثين يوماً وعرض تيمور عليه مرافقته ولكن ابن خلـدون اعتذر بلباقة ، وآثر الرجوع الى مقره بمصر • ومن الطريف أن الطاغية سمع أن ابن خلدون جاء على بغلة فارهة ففكر أن يستامها منه • وهذا يدل على أهمية المطايا أيـاً كان نوعها في الحروب وعلى اتجاه تفكير تيمور نحو ذلك • وقد يكون مسلياً أن ننقل حوار الاستيام هذا هنا •

كتب ابن خلدون : « ولما قرب سفره واعتزم على الرحيـل عن الشام دخلت عليه ذات يوم • فلما قضينا المعتاد التفت الي وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت : نعم • قال : حسنة ؟ قلت : نعم • قال : وتبيعها؟ فأنا أشتريها منك • فقلت : أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك • انما أنا أخدمك بها وبأمثالها لو كانت لي • فقال : إنمـا أردت أن أكافئك عنها بالاحسان • فقلت: وهل بقي إحسـان وراء ما أحسنت به ؟ اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محل خواصّك وقابلتني من الكرامـة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله • وسكت وسكت ، وحُمِلَت البغلة ، وأنا معـه في المجلس اليه • ولم أرها بعد »(٣) •

وقد وصل ابن خلدون في ايابه الى مصر سنة ٨٠٣ هـ ولكن تيمورلنك أرسل ثمن البغلة مع رسول كان قد أرسله سلطان مصر الى الطاغية إجابة الى الصلح • ولكن ابن خلـدون المتمرس بالسياسـة خشي أن يقبل المال وأن يصل الخبر الى السلطان فتظن به الظنون فلم يقبله الا بعدما أخبر السلطان بذلك فأجازه ولكن المبلغ كان ناقصاً واعتذر حامله عن نقصه بأنه أعطيه كذلك • وحمد ابن خلـدون

الله على الخلاص • ومع كل ذلك فقد كتب ابن خلدون الى ملك المغرب بقصة وفادته على تيمور ايضاحاً لموقفه منه •

وهكذا يمكن توزيع حياة ابن خلدون على ثلاثة أطوار •

١ ـ طور نشوء وتكوين وثقافة وتأليف قضاه في تونس مدته ٢٤ سنة •

٢ ـ طور نضال اجتماعي وسياسي وتأليف تنقل فيه بين تونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس مدته ٢٦ سنة •

٣ ـ طور أخير أقام فيه بالقاهرة ولكنه زار الحجاز والشام مدته ٢٤ سنة شغل فيه بالتدريس والقضاء وتنقيح كتابة العبر •

وجملة الأطوار الثلاثة أربع وسبعون عاما •

وقد مر على تأليفه لمقدمته الشهيرة نحو ستمائة وخمس عشرة سنة • وبهذه المناسبة يجدر بي أن أبيّن أن اللغة العربية ببيانها العلمي والأدبي قد تطورت تطوراً كبيراً على خلاف المظنون مع محافظتها على هويتها وأصالتها • بيد أن ألفاظاً كثيرة فقدت جملة من مواكب ايحاءاتها ، فليست تقع في الذهن ولا في القلب مواقعها اذ ذاك في التأثير والافادة في ميدان المعرفة • ولهذا ربما تفيد قراءة المقدمة أحياناً في ترجماتها الأجنبية للشعور بجدة التعابير التي اشتملت عليها زيادة على ضرورة قراءتها بالعربية أصلاً • نجد في المقدمة مثلاً لفظي التأنس والتوحش ونحن نقول اليوم بالتقريب التقدم والتأخر• كذلك ما يلحق بالمجتمع الانساني من الأحوال والعوارض الذاتية واحدة بعد أخرى يريد المؤلف به شؤون التطور الذاتي وقوانينه وعلاقاته الذاتية • ثم اختلاف الأجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش يريد المؤلف بذلك اختلاف أحوالهم حسب حرفهم ومستويات معيشتهم • ولفظ التغلبات يريد به الحروب ونتائجها أحياناً وهكذا ••• ولهذا نرى انعام النظر في نصوص مقدمته لدى قراءتها وتأملها على ضوء التعابير الحديثة دون تبرم بجفاف التعبير العلمي الواضح المبين الذي يلتزمه المؤلف في زمنه •

* * *

جرى العلماء العرب على غرار أرسطو فقرروا أن العلم ناشيء عن العجب وأن العجب يدعو الى بيان السبب • ومن المعروف أن الفلاسفة وعلى رأسهم

أرسطو تناولوا منذ القديم فكرة السبب وحاولوا ايضاحها . وقد صنف أرسطو الأسباب في أربعة أصناف . ولا بأس أن نذكر بهذه الأصناف .

١ ــ سبب مادي وهو المادة المصنوع منها الشيء .
٢ ــ سبب شكلي أو صوري وهو الشكل الذي للشيء .
٣ ــ سبب فاعل وهو أصل الحركة والسكون الذي يهب للشيء شكله أو صورته .
٤ ــ سبب غائي أو لمائي أي الغاية التي صنع لها الشيء أو الهدف من الشيء .

وتعاقب الفلاسفة في تأمل فكرة السبب وتعريفها . ومن أشهرهم في هذا الشأن ستوارت ميل الذي عرف السبب بأنه « المتقدم الدائم اللاشرطي » .

ومعنى ذلك أن السبب هو المتقدم وأن المسبب هو التالي المتأخر . فالسبب أو العلة متقدم بالزمان على المسبب أو المعلول . ثم إن المتقدم لا يكون سبباً أو علة الا اذا كان تقدمه دائماً . ثم لا يكفي أن يكون المتقدم دائم التقدم بل يجب أن يكون تقدمه غير تابع لشرط آخر . فتتابع الليل والنهار مثلاً تتابع دائم ناشيء عن سبب آخر وهو دوران الأرض . فالليل ليس سبب النهار ولا النهار سبب الليل .

ان العلماء والفلاسفة حين يصلون الى تعريفٍ ما للسبب يجرون عليه . حتى اذا وجدوا ظاهرة يخرج حدوثها عن حدود هذا التعريف اضطروا الى تعديله أو توسعته . فلقد كانوا يعوّلون منذ حين على تعريف ستوارت ميل السالف . ولكنهم عدلوه في العصر الحاضر واعتمدوا فكرة الاقتران أو التابع كما نقول في سورية أو الدالة كما يقال في مصر .

لنضرب مثلاً بسيطاً لبيان تصور الدالة أو التابع :

نقول مثلاً ع = جيب س .

في هذه العلاقة س متغير مستقل و ع متغير تابع . وللاختصار نسميه تابعاً كما نسميه دالة لأنه يدلنا على تغير س .

ولكن يمكن أن نكتب : س = قوس جيبها ع .

وهكذا ينعكس الأمر : ع هنا المتغير المستقل و س هي المتغير التابع .

هذا هو معنى التابع الرياضي أو الدالة الرياضية أو الاقتران الرياضي. مثل هذا الاقتران موجود في الطبيعة .

لنأخذ كتلة معينة من الغاز يعرف حجمها وضغطها في درجة حرارة ثابتة .

يعطينا قانون بويل ماريوت هذه العلاقة الاقترانية :

ح × ض = ثا .

أي جداء حجم تلك الكتلة في ضغطها في درجة حرارة ثابتة ثابت .

نستطيع أن نكتب : $ح = \frac{ثا}{ض}$

أي أن الضغط متغير مستقل والحجم متغير تابع . وبعبارة أخرى كل تغير في ضغط هذه الكتلة الغازية يستدعي تغيراً في حجمها ، أي أن تغير الضغط سبب تغير الحجم .

ويمكن أيضا أن نكتب : $ض = \frac{ثا}{ح}$

ويكون هنا الضغط تابعاً للحجم أي أن تغير الحجم هو سبب تغير الضغط .

فالسبب انقلب مسبباً أو نتيجة والعلة معلولاً على خلاف ما قرره ستوارت ميل . وهكذا نفهم السببية على أنها تابعية أو داليّة أو اقتران . وما أحكم اللغة العربية حين جعلت من معاني السبب الحبل الذي قد يربط بين شيئين وجعلت منها الوصلة والذريعة أي ما يتوصل به الى غيره ! . فالظاهرة قد تسبق فتكون علة أو سبباً يترتب عليها نشوء ظاهرة أخرى هي المعلول أو النتيجة . وقد يتأخر السبب أو العلة فيصبح نتيجة ومسبباً وتصبح العلة معلولاً كما ظهر في كتابتنا علاقة بويل ماريوت على شكلين مختلفين . هذا اذا جرى تفاوت الحجم والضغط في درجة حرارة ثابتة . أما اذا تغيرت درجة الحرارة فثمة علاقة أخرى بسيطة تجمع المتغيرات الثلاثة وهي الحجم والضغط والحرارة . ولا حاجة للافاضة في هذا الشأن لأن المراد هنا مجرد ايضاح فكرة

السببية في فلسفة العلوم الحديثة أو الابستمولوجية وهي الاقتران والتأثير المتبادل ·

ان ابن خلدون قد أدرك هذا الاقتران أو التفاعل بين الظواهر على شكل تابعية أو دالّية · فقد حلل المجتمع الى متغيرات متعددة وبين تأثير بعضها في بعض ومدى هذا التأثير وعواقبه · وعرض ذلك كله في مقدمته المشهورة وهكذا نجد تلك المتغيرات في كتابه اللامع المبتكر تموج وتتفاعل تفاعلاً في الحوادث والأحوال التاريخية التي وعاها المؤلف في سياق التاريخ وفي الظواهر الاجتماعية التي شاهدها في عصره · فلقد بسط شؤون ذلك في المقدمة من متغير جغرافي ومتغير ديني ومتغير سياسي ومتغير اقتصادي ومتغير ديمغرافي ومتغير علمي ومتغير عملي أو صناعي وهلم جرا وتبيّن فعل كل متغير وأثره ونتائج هذا الأثر · لنعرب عن ذلك الآن بتعبير رياضي فنقول:

اننا نسمي تلك المتغيرات المتفاوتة بحروف كما في الجبر على هذا الشكل ·

(ا ، ب ، حـ ، د ···) ·

نأخذ المتغير ا فندرس تغيره تبعاً لبقية المتغيرات :

(ا ، ب ، حـ ، د ···) ·

ثم نأخذ ب فنكتب

ب = تا (ا ، جـ ، د ···) ·

وهكذا

كل متغير في الحياة الاجتماعية يؤثر ويتأثر ببقية المتغيرات التي تحتويها الحياة · ومن المعلوم أن هذه المتغيرات ليست متساوية في الأهمية والمكانة · بل بعضها أهم في بعض العصور من بعض · ولذلك يتناول المؤلف بعضها بشرح أوفى من بعضها الآخر وهو يدرك تمام الادراك أن هذا النحو من التحليل سكوني أو تشريحي وأنه لا بد من التنبه الى الحركة الدائمة في الحياة الاجتماعية والى التطور والى تبدل تلك المتغيرات في سياق الزمان من حال الى حال أي أن

(ا ، ب ، حـ ، د ٠٠٠) تصبح بعد حين

(اَ ، بَ ، حـَ ، دَ ٠٠٠) ثم

(اً ، بً ، حـً ، دً ٠٠٠)

وهكذا الأمر ٠ فالجانب التشريحي السكوني يلزم أن يضاف اليه الجانب التطوري (أو الدينامي بالتعبير الحديث)

وهو يكتب ملحاً على أهمية هذه الصيرورة الدائمة :

« وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ؛ انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال ٠ وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »(٤) ٠ وهو يعلل ذلك تعليلاً يكاد يكون جدلياً اذ يعتمد على تضارب العادات وتفاوتها وتركيب المتضارب المتفاوت فيقول : « والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكمية : الناس على دين الملك ٠ وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد من أن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك ٠ فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول ٠ فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء ، وكانت للأولى أشد مخالفة ٠ ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة ٠ فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة . والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة »* ٠

هذا ما وجدناه أساسياً في طريقة ابن خلدون العلمية ٠ ومن المعلوم أن المؤلف لم يجر على هذا الشكل من الايضاح والتعبير الرياضي ٠ ولكننا اذا تقصينا المتغيرات الاجتماعية المتفاوتة التي أوردها وتبينا اقتران بعضها ببعض وآثار بعضها في بعض تبينا عبقرية ابن خلدون وعمق نظراته ونفوذها واتساعها على غرار ما أوضحناه وعرفنا عندئذ سَبْقَه في هذا التحليل لكثيرين ممن أتوا بعده من

العلماء جملة فاقتصروا في بحوثهم على متغير واحد من المتغيرات الاجتماعية أو على بعض المتغيرات دون هذا الشمول والنفوذ والموضوعية ·

لقد كان ابن خلدون واعياً لاتساع الظواهر الاجتماعية واشتمالها على عديد من المتغيرات ولتشابكها ودخول بعضها في بعض · فهو لا يكاد يترك نوعاً من أنواعها الا عرض له بالبحث والتفهم · وربما يكون من المفيد أن نلخص ما استطعنا هذه الأنواع التي جاءت في المقدمة ·

لقد قسم مقدمته أي الجزء الأول من كتابه على ستة أبواب وقسم الباب الى عدد من الفصول · وحاول أن يخصص كل باب من الأبواب بطائفة من الظواهر الاجتماعية ومتغيراتها · ولكنه في بعض الأحيان بسبب منهجه الذي أوضحناه لا بد من أن يتعقب المتغير ويتبين اشتباكه مع المتغيرات الأخرى وتأثير كل متغير في غيره تأثيراً متبادلاً · وهكذا تتداخل الفصول والأبواب بعضها مع بعض · ولكن المؤلف يضع لكل فصل عنواناً واضحاً وجلياً ·

وهو في مقدمته كما سلف يبحث قضايا الدين والبيئة الجغرافية ومراحل العمران ونظم الحكم وشؤون السياسة والظواهر الاقتصادية وما يتعلق بها من صناعات والأمور الديمغرافية والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه والتربية وأصولها والأمور النفسية والقضاء والأخلاق وتذوق الفن في الصناعات واللغة والأدب والشعر وما يتفرع عنها وما ينضوي في كل نوع من الأنواع التي أثبتناها · وقد عني في جميع ما عالجه من تلك المجموعات بأن ينظر اليها من كلا الجانبين التوازني أو السكوني أو التشريحي والتطوري أي الدينامي كما أوضحنا آنفاً ·

إن عرضه هذا يبدو متفاوتاً في الاسهاب والايجاز لأنه يتعلق بطبيعة الموضوع وأهميته · ولا شك أن المتغيرات السياسية والاقتصادية ونظم الحكم والشؤون العلمية والتربوية أبرز في كتابه من غيرها لمكانتها في الحياة الاجتماعية .

وبسبب هذه الاستفاضة في أنواع المتغيرات الاجتماعية وتداخلها لا نستطيع أن نعرض لجملة ما جاء في هذه المقدمة البليغة التي هي من أبرز معالم الفكر الاجتماعي · ولكن مع ذلك لا بد من عرض متغير اجتماعي أو ظاهرة اجتماعية

من تلك المتغيرات والظواهر وبيان مهارة ابن خلدون في معالجتها وسَبْقه الى ايضاحها واشتباكها مع غيرها ونفوذه العميق الى طبيعتها وتفهم كنهها .

لقد عالج الأستاذ ايف لاكوست معالجة طيبة في كتابه عن ابن خلدون جوانب عدة من بنية المجتمع المغربي العربي وعلاقة هذه البنية بالعصبية القبلية على حد تعبير ابن خلدون وبأثرها في انشاء الدولة اذ ذاك وبالطرق التجارية التي كانت تسلك أواسط افريقية الى شماليها وكذلك أوضح تبادل السلع التجارية ولا سيما الذهب بين الجنوب والشمال والشرق والغرب وهذه أمور مهمة كما عالج أموراً أخرى ذات شأن .

نحن نعالج هنا ظاهرة خاصة بدت أهميتها في العصر الحديث وهي ظاهرة السكان أو المتغير الديمغرافي لايضاح طريقة ابن خلدون في المعالجة ولابراز جوانب مهمة في هذا المتغير وأثره المتبادل مع غيره . وذلك أن الديمغرافية تدخل في أعمق اختصاصاتنا .

عدد السكان متغير مستقل . يزداد فيرتبط به اذ ذاك جملة عوامل . فهذه متغيرات توابع . من هذه التوابع كثرة الأعمال وتنوعها وسعة الرزق ونفاق الأسواق ورفاهية الناس وازدهار التجارة وتقدم الصناعة وحصول الابتكار فيها . يعقد ابن خلدون فصلاً « في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة » . وينبغي أن نفهم من لفظ العمران هنا كثرة السكان . ولا بد من ايراد شطر طويل من هذا الفصل . يقول المؤلف ببساطة ويسر : « والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك . والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر منهم عدداً أضعافاً . فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر واثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال واجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لأضعافهم مرات . فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم . فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من

تلك الأعمال ، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى . وقد تبين ... أن المكاسب انما هي قيم الأعمال . فاذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم ، فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها تُستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها . فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قِبَل أعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول ، وكذا في الزيادة الثانية والثالثة ، لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش . فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر . فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف : القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي »(٥) . ويترتب على هذا تكافؤ الدخل والخرج في حال كل بلد . يقول المؤلف : « وأما حال الدخل والخرج فمتكافىء في جميع الأمصار . ومتى عظم الدخل عظم الخرج. وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر . كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه »(٦) .

لقد ذكرنا قسماً طويلا من هذا الفصل لأهميته في الديمغرافية الاقتصادية اذ يوضح العلاقة التي تربط السكان وأعمالهم ومكاسبهم بالاقتصاد في المصر الواحد .

والأقطار على مثال الأمصار في التقدم والتأخر بسبب اتساع العمران أو ضيقه ، وازدياد السكان أو تخلخلهم . فهو يعقد فصلا آخر « في أن الأقطار في

اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار » فيكتب : « ان ما توافر عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم . والسبب في ذلك ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسباً يتأثلونه . »(٧) ويورد أمثلة على ذلك لعهده فيقول : « واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي (البحر المتوسط) كما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم ... واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة (تونس وليبيا) لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلّت أموال دولها . »(٨)

ولا يغيب عن بال ابن خلدون تفاوت أسعار المدن في الضروري والكمالي بتفاوت اتساعها . « فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه ، وغلت أسعار الكمالي من الأُدْم والفواكه وما يتبعها . واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس »(٩) .

وتعليل ذلك أن الدواعي تتوافر على اتخاذ الضروري في الأمصار الواسعة وعلى تأمينه للحاجة الملحة اليه ، فيفضل وفرمنه وترخص أسعاره ، على حين أن الكمالي فيها يشتد الطلب عليه فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصوراً بالغاً ويكثر المستامون له وهو قليل في ذاته نسبياً فيقع فيه الغلاء .

وعلى خلاف ذلك « الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن . فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها . وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه ، فيعزّ وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه . وأما مرافقهم فلا تدعو اليها أيضاً حاجة لقلة الساكن وضَعْفِ الأحوال ، فلا تنفق لديهم سوقه فيختصّ بالرخص في سعره . »(١٠)

وهذا الوصف صحيح في اقتصاد السوق الحرة وفي الوقت الذي كان كل مصر يسعى نسبياً نحو اكتفائه الذاتي ·ومن المناسب أن نوضح هنا ما يراه ابن خلدون من وراء ذلك في « حقيقة الرزق والكسب » · وهذا ما يقربه من نظرية ماركس في العمل والقيمة · فهو يرى أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية وأن « ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله ، وهو القصد بالقنية، اذ ليس هناك الا العمل · » وعلى هذا فان « المفادات والمكتسبات كلّها أو أكثرها انما هي قيم الأعمال الانسانية · »(١١) ولا يغفل ابن خلدون دخول الضرائب في قيمة السلع فيقول : « وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم · »(١٢) ·

ثم « ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة . » وذلك « أن الصنائع انما تكثر في الأمصار · وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش · فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع · ومن تشوّف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو... ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها · واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين · ولما تناقض عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من أمصار الاسلام · »(١٣)

ولما كانت الحضارة أحوالا زائدة على الضروري من أحوال العمران غدت الزيادة تتفاوت مع الغنى والرفه المتعلق بتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ، اذ يمكن التفنن في أنواع تلك الأحوال وأصنافها · ويعتمد هذا التفنن على المهارة والابتكار · ولا بدّ من تعهد الدولة لهما وتوجّه سياستها

نحو هذا التعهد . ويبدو أثر الدولة في مركزها ومقرها أي عاصمتها أكثر منه في الأمصار القاصية . (الفصل السابع عشر في أن الحضارة في الأمصار من قِبَل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها[١٤]) .

نعكس العلاقة الآن فننظر الى المتغير الديمغرافي على أنه نتيجة لبعض المتغيرات الاجتماعية ومعلول لها .

ذلك أن للدولة أعماراً[١٥] وللعمران مراحل . وهذه المراحل متصلة بالظواهر الديمغرافية ومؤثرة فيها فتصبح هذه الظواهر متغيرات تابعة لها اذ يكثر النسل عند توطد الدولة وازدهارها .

ان الدولة في أول أمرها اذا كانت« رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوافر ،ويكثر التناسل . »[١٦] حتى اذا انتهت الدولة الى غايتها في الترف والنعيم تقع المجاعات بسبب عوز الأقوات لقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن كما يكثر الموتان (معدل الوفيات) بسبب المجاعات أنفسها وكثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل وبسبب فساد الهواء وسوء الغذاء ، وشدة الازدحام وانتشار الأمراض[١٧] .

أما قضية الازدحام وانتشار الأمراض فهو متعلق بما يسمى اليوم بتلوث البيئة . وقد نبه ابن خلدون قديماً على« أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح . ولهذا أيضاً فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير . »[١٨]

ذكر ابن خلدون لفظ مخالطة الحيوانات التي كانت مطايا الركوب لعهده ويجدر أن نستبدل به في عصرنا مخالطة السيارات والمصانع وما تنفثه في الجو من بقايا المحروقات . هذا على الرغم من تبدل أحوال المدن في العصر الحاضر باتساع الشوارع وانتشار النظافة وجر المياه النقية وزيادة الخدمات الصحية .

وأما المجاعات فيهمنا هنا من بعض أسبابها التي ذكرها ابن خلدون الاسراف في العناية بزراعة ما ليس فيه فائدة غذائية للشعب المزدحم . يتحدث المؤلف فيقول بصورة غير مباشرة : « وهذا معنى ما يقول بعض الخواص ان المدينة اذا

كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب .حتى ان كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور • وليس المراد ذلك ، ولأنه خاصية في النارنج ، وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة • ثم ان النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طَعْمَ فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة ، اذ لا يقصد بها في البساتين الا أشكالها فقط ، ولا تغرس الا بعد التفنن في مذاهب الترف • وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه • ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى • وهو من هذا الباب ، اذ الدفلى لا يقصد بها الا تلون البساتين بنَوْرها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف • »(١٩) •

يمكن مقايسة هذه الآراء الأخيرة المتعلقة بزراعة الأرض ما لا يغذي بما جاء عند فريق من الاقتصاديين الغربيين مثل أوتو افرتز الذي يرى مثلا أن اعتماد الخيرات التي ترتكز على الأرض ولا ينفع استهلاكها الناس هو تحطيم لأرواح بشرية على حد دعواه ، اذ لو لم تعتمد تلك الخيرات في حدائق التجميل وتربية خيل السباق لعاشت بها أناس • ويقول فيما يقول : « ان الأسرة المتأنقة التي للزوج فيها رياضته وللزوجة رياضتها لتزرع الموت والاستعباد بين طائفة من الكائنات الانسانية »(٢٠) • المهم عند ابن خلدون هو تعاون أبناء المجتمع وتكانفهم (بالنون) دون ترف بعض الطبقات على حساب طبقات أخر •

ولا ينسى مؤلف المقدمة آثار الأوباء في التغير الديمغرافي • فهو حين تحدث عن الطاعون الجارف الذي نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة الهجرية يصفه بأنه « تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ، فقلّص من ظلالها ، وفلّ من حدها ، وأوهن من سلطانها ، وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها ، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت الأمصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن • »(٢١)

يذكر ابن خلدون في الفصل الذي يعالج فيه أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره جملة من المفاسد كالانهماك في الشهوات وسوء التربية واضطراب

النسل وقلته من جراء المفاسد • وينهي هذا الفصل بقوله : «ان الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لأن الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك • » ثم يقول : « واذا فسد الانسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخاً على الحقيقة • »

* * *

ينبهر كثير من الباحثين الحديثين في علم الاجتماع الخلدوني عرباً وأجانب بابتكاراته وانتباهاته التاريخية المتعددة وطريقته في البحث والاستدلال ونفوذه الى جملة المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ـ على حد تعبيرنا ـ في الحياة الاجتماعية الانسانية • ومن أبرز العلماء المؤرخين الأجانب الذين أعجبوا بمؤلف المقدمة المؤرخ الانكليزي توينبي Toynbee اذ قال في كتابه « دراسة في التاريخ » : « لقد ابتكر ابن خلدون وصاغ فلسفة تاريخ هي بلا ريب أعظم عمل أنجزه عقل انساني في أي زمان وأي مكان • » ولا شك أن ابن خلدون يبدو العَلَم البارز المنيف في تاريخ التفكير الاجتماعي ويمكن أن نعده المؤسس الأول الواعي لعلم الاجتماع كما نعده المؤسس الأول لطائفة من العلوم الاجتماعية التي أصبح كل متغير اجتماعي موضوع علم من هذه العلوم • فهو عندنا أفضل بكثير وأعمق من جون غرنت John Graunt الذي تنسب اليه الريادة في علم السكان وهو ما بيناه بالتفصيل في أحد بحوثنا السابقة •

ولكن هذا الانبهار لا وجه له اذا علمنا أن البحوث الاجتماعية بأشكالها المختلفة وجدت باللغة العربية منذ نشأت الحضارة العربية الاسلامية • ذلك أن الدين الاسلامي اجتماعي في كنهه وحقيقته أتى لمصلحة الناس جميعاً على اختلاف عروقهم وألوانهم وقومياتهم ونحلهم ليتعارفوا ويتعاونوا في سبيل الخير والوئام والتقدم والسلام هذا الى جانب آفاقه التعبدية الروحية الواسعة. ولذلك لانجد مفكراً في هذه الحضارة الواسعة الا وفكر في تفهم المجتمع الانساني وفي صلاحه ، وان تعددت الطرق في هذا التفكير • فهنالك الفقهاء تمتلىء كتبهم بتناول الحياة الاجتماعية من جميع وجوهها سياسة واقتصاداً وأسرة وحرباً وسلماً وغير ذلك وهم جمهور كبير • وكذلك الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وحاولوا

أن يتبيّنوا صلاح المجتمع الانساني وفي طليعتهم يأتي الفارابي الذي دعي بالمعلم الثاني وابن سينا وابن رشد ٠ وابن خلدون نفسه قد اطلع على بحوث الفقهاء وعلى بحوث الفلاسفة ولخص على وجه الخصوص بحوث الفيلسوف الأندلسي ابن رشد كما يذكر مترجموه ٠ وكذلك استوعبت الحضارة العربية الاسلامية مواعظ الفرس والهند وتنظيماتهم الادارية وآراءهم العلمية المختلفة ٠ وعلى رأس الذين نقلوا هذه البحوث عبد الله بن المقفع بترجمة كتاب كليلة ودمنة ومن حذا حذوه من أعيان الفرس والهنود ٠ ثم لا ننس المؤرخين أنفسهم أسلاف ابن خلدون وهم وان غفلوا عن طبائع الملك والعمران على حد تعبير مؤلف المقدمة فانهم نقلوا مواد تاريخية وتراثية كثيرة وتأملوا فيها ٠ كذلك الجغرافيون والرحالة الذين طافوا في أقطار الدول ووصفوا أحوالها بتدقيق وبيان وتفهم واتقان ٠ ولا شك أن كتاب المقدسي البشاري « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » يحمل عرضاً موضوعياً لصور الحياة المعاشية والفكرية والدينية والاقتصادية وغيرها لتلك الممالك ٠ ثم ان العلوم الموضوعية ولاسيما علم التعاليم أي الرياضيات التي نبغ فيها العرب وعلم الهيئة وبقية العلوم كالنبات والحيوان والطب وغيرها ساعدت كلها على تكوين التفكير العلمي الدقيق الذي يبحث علل الكائنات ومعلولاتها ويقيس الغائب على الشاهد ويستيقن بأن الحوادث الاجتماعية الانسانية تجري على علاقات ثابتة الى أمد محدود حسب خطوط قوى كما يقول الفيزيائيون ولكنها مع ذلك رهينة التطور ٠

ولما جاء ابن خلدون وجد الجو الفكري مناسباً لتوكيد كيان مستقل للظواهر الاجتماعية رآه موضوع علم جديد سماه علم العمران البشري مع ما يعرض له من عوارض ذاتية واستطاع بثقافته الواسعة وتجربته الانسانية أن يكتب مقدمته تلك كما استطاع الى ذلك أن يمحص الأخبار تمحيصاً وأن يدقق في الروايات تدقيقاً بطريقة أصيلة من طرائق البحث الاجتماعي أشرنا الى جانب منها في بحثنا هذا ٠

واذا نوهنا ببحوث ابن خلدون ومنهجه المبتكر في البحث فينبغي ألا ننسى أمثاله من العلماء الذين تقدموه كالامام الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » ٠ ولا سيما أبو الريحان البيروني في كتابه المشهور :

« تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة

فاننا نجد هذا المؤلف العظيم الذي رافق السلطان محمود الغزنوي الى الهند وعاش مدة طويلة في هذه البلاد الواسعة قد كتب ذلك الكتاب المهم في تاريخ الهند. وعمد في مقدمته الى فحص الأخبار وأسباب تسرب الأخطاء والأوهام اليها فهو عندنا في كتابه ارهاص بمجيء ابن خلدون . هذا عدا عظمة البيروني في بحوثه الرياضية والهندسية والفلكية .

لا غرو اذن بعد توسع المنقول والمعقول وتطورهما والبحوث الكثيرة التي تناولتهما أن نجد ابن خلدون يتمثل ذلك التطور والتوسع ويعي طبائع المجتمع الانساني وينفي كل زيف أو خرافة أو مبالغة في نقل الأخبار .

وعندنا أن مكانة ابن خلدون الى جانب منهجه العلمي الذي سلكه مستندة الى وعيه لطبائع المجتمع الانساني وتلمسه لمسارب الكذب الى الأخبار . ومن المفيد عرض الأسباب التي تهيء تلك المسارب . نحن نلخصها هنا ونحافظ على أكثر عبارات ابن خلدون نفسه .

فمن الأسباب التي تقتضي الكذب التشيعات للآراء والمذاهب . وهي غطاء على عين البصيرة تحول بينها وبين الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومنها الثقة بالناقلين . ولا بد من تصفح أحوال هؤلاء الناقلين وهذا يعتمد على ما يسمى في علم الحديث والرواية بالتعديل والتجريح .

ومنها الذهول عن المقاصد . فربما لا يعرف الناقل القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب .

ومنها توهم الصدق وهو كثير . وانما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين.

ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها .

ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال واشاعة الذكر بذلك فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقتها . فالنفوس مولعة بحب الثناء . والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة . وليسوا في الأكثر راغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها .

ولكن أهم تلك الأسباب الجهل بطبائع الأحوال في العمران ؛ فان كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله · فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ··· وهذه المعرفة أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار · وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة · ولا يُرجع الى تعديل الرواة حتى يُعْلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع · وأما اذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح(٢٢).

ثم ان خبرة ابن خلدون العملية وممارسته للقضاء وثقافته الواسعة ولاسيما في الفقه وأصوله واطلاعه على فلسفة اليونان ولا سيما أرسطو ودراسته للعلوم العقلية ولا سيما علم التعاليم أي الرياضيات كل ذلك جعله يفند مغالط المؤرخين وينفي الخرافات ويندد بها · وقد كتب عن علم الهندسة :

« اعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها · فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع · وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون : من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا · وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقّيه من الأوضار والأدران · وانما ذلك لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه »(٢٣) ·

وقد أشاد بهذه الفقرات مؤرخ العلوم الحديث جورج سارتون فكتب :

« إن بيانه هذا على ما فيه من إطناب جدير بالاعجاب · أصاب فيه المحزّ وطبّق المفصل · فالخرافات في الفكر الانساني كالقذارة والطفيليات في الجسم مدعاة خزي مرير · ويا ويح الشعوب التي تبتلى بالخرافات والطفيليات فهي لا تدرك خزيها · وانما تميل الى الاستزادة منه وتغرق أنفسها في الحقارة يوماً بعد يوم »(٢٤) ·

★ ★ ★

ونحن هنا نريد أن نذكر له تحقيقاً طريفاً يتعلق أيضاً بعلم السكان. وتحقيقه

هذا يشف عن عمق حدسه الكمي وعن معرفته العميقة بشؤون هذا العلم واحتمالاته . وتحقيقه هذا مبني على آثار المتغير السكاني المستقل .

فهو يرفض ما نقل « المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون » .

وانما نقل المؤرخون هذا الخبر عن « العهد القديم » جاء في الفقرتين ٤٥ و٤٦ من الفصل الأول من سفر العدد « وكان جميع المُحصَين من بني اسرائيل بحسب بيوت آبائهم من ابن عشرين فصاعداً ، كل من يخرج الى الحرب في اسرائيل ، جميعهم ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » .

يدحض ابن خلدون هذا الخبر المتناقل بالاعتماد على عدم امكان الاستيعاب الجغرافي لذلك العدد اذ ان المؤرخ الناقل للخبر « يذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش . لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها . تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة . ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبُعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد ، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر . والحاضر يشهد لذلك . فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء . »(٢٥) ويمضي ابن خلدون في استنفاد جوانب هذا البرهان الى آخره مستشهداً بجيوش الدول الخالية كدولة الفرس مثلا . ثم يعتمد حجة مهمة ديمغرافية وهي بيان عدم الاحتمال لتناسل بني اسرائيل بين موسى ويعقوب وهو اسرائيل الى ذلك الحد وبينهما أربعة آباء . يتابع مؤلف المقدمة المسعودي لينقده : قال المسعودي : « دخل اسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفساً . وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة . ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد. وان زعموا أن عدد تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد

أيضاً ، اذ ليس بين سليمــان واسرائيــل الا أحد عشر أباً (يعددهم ابن خلدون) • ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون • وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد • واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً • والذي ثبت في الاسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباتـه كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه • هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم • وفي أيام سليمـان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم »[٢٦] •

ثم انه يعلل أسباب هـذه المبالغـات فيقول : « هذا وقد تجد الكافة من أهـل العصر اذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التـي لعهـدهم أو قريبـاً منـه ، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين والنصارى ، أو أخذوا في احصاء أمـوال الجبايات وخـراج السلطـان ونفقـات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد ، وطاوعوا وساوس الاغراب • فاذا استكشفت أصحـاب الدواويـن عـن عساكرهـم ،واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عـوائد المترفين في نفقاتهم لن تجـد معشـار ما يعدّونه • ومـا ذلك الا لولـوع النفس بالغـرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد ، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبـر بتوسط ولا عدالة ، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش ، فيرسل عنانه ، ويسيم في مراتع الكذب لسانه • »[٢٧] •

وقد أبان الباحثون الديمغرافيون في العصر الحاضر أي بعد مئات السنين مـن عهد ابن خلدون صحة دحضه للأرقام التي جاءت في العهد القديم وتناقلها المؤرخون. جاء في كتاب «تاريخ سكان العالم» لمؤلفيه الأستاذين رنهار وارمنغو ما يلي :

« ولهذا كان أولئك الذين فحصـوا كشوف أعداد السكان بمجموعها أو على الأصح عدد القادرين على حمل السـلاح مما جاء في التـوراة استغربـوا جـواز احتمالها . فالكشوف تستلزم كون السكان يبلغ مجموعهم خمسة ملايين نسمة كسكان مصر وما بين النهريـن على الرغم مـن ضآلة مساحة المنطقة وقلة غناها بالنسبة

الى ذينك القطرين . ثم ان سرعة التناسل تبدو غير مقبولة في تلك التواريخ المعروضة .»[٢٨]

وجرى على نهج هذا الدحض الأستاذان غيوم وبوسو في كتاب لهما حديث بعنوان « الديمغرافية التاريخية » فألحاعلى امتناع أرقام التوراة حين ننظر الى تاريخ البلد أو المنطقة في ذلك العصر .« فذلك العدد يتضمن وجود أكثر من خمسة ملايين نسمة وهذا غير ممكن .وقلة دقة الأرقام يثبتها علم السكان نفسه لأن معدل النمو حينئذ يكون أسرع مما هو ممكن . كذلك توزع الجنسين والأعمار ممتنع .»[٢٩]

* * *

من جرّاء الطريقة التي سلكها ابن خلدون اتسعت صدور بحوثه لكثير من الظواهر الاجتماعية ، كما أتاحت النفوذالى كنه هذه الظواهر واشتباكها والالمام بطبائعها التي هي طبائع العمران على حد تعبيره . لذلك لا يكاد الباحث الاجتماعي اليوم يطالع كتب علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ دون أن يتذكر ابن خلدون ويعقد شيئاً من الموازنة بين آرائه وآرائهم . فهو يذكره حين يقرأ جيوفاني باتيستافيكو الايطالي (١٦٦٨ــ ١٧٤٤) في كتابه « العلم الجديد » ومونتسكيو الفرنسي (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) في كتابه « روح القوانين » وهردر الألماني (١٧٤٤ ــ ١٨٠٣) في كتابه« آراء في فلسفة تاريخ الانسانية » . كذلك يتفهم محاولة الفيلسوف أوغست كونت الفرنسي (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) في سعيه لانشاء علم جديد مستقل هو علم الاجتماع ويقارن سعيه بالعلم الجديد « المستنبط النشأة »على حد التعبير الخلدوني وهو علم العمران البشري . ولم يقف منشىء علم العمران عند التلويح به ، والتكهن بتفصيله بل اختط طريقته المبتكرة الواسعة وعالج ظواهره . ثم أتى بعد اوغست كونت العالم الاجتماعي الفرنسي ايميل دركهايم (١٨٥٨ ــ ١٩١٧) ليقيم أركان هذا العلم ويلتف حوله طائفة من الباحثين نهجوا نهجه واقتفوا أثره . كذلك نذكر مؤلف المقدمة حين نقرأ العالم الاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) في كتابه « بحث في طبيعة ثراء الأمم وأسبابها » حين ينوه بقيمة العمل الانساني وكذلك حين نتأمل أعمال كارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣)



ولا سيما اشادته بقيمة العمل الذي هو أصل الثروة وكذلك جدليته المستندة الى التغير المستمر والتطور الدائم • ونعجب كيف لم يهمل ابن خلدون العامل النفسي أي قضية التقليد والاتباع في الحياة الاجتماعية حين جعلها أصلا في موقف الصغير من الكبير والتلميذ من المعلم والضعيف من القوي والمغلوب من الغالب، واستند اليها في توقعه سقوط الأندلس بما شاهده من تشبه أهلها بالجلالقة • ولما جاء غابريل تارد الفرنسي (١٨٤٣ ـ ١٩٠٤) ملأ بحوثه وكتبه بتعميم الاقتداء والتقليد بين الناس وهو يراه السبب في انتشار الأفكار وترادف الأقوال وتشابه الأعمال والأحوال • وهل نحن بحاجة بعد أن قدمنا عناصر أساسية من تفكير ابن خلدون في قضايا السكان الى أن نقارن كنهها بما جاء في كتاب دركهايم « في تقسيم العمل الاجتماعي » وكتاب أدولف كوست « مبادىء علم الاجتماع الموضوعي » وكتاب المفكر البلجيكي أوجين دبرييل «بحثان في التقدم» وبجملة أعمال العالم الايطالي كوراّدو جيني الذي يأتي في طليعة الباحثين الحديثين الذين بيّنوا فعل المتغيرات الديمغرافية من كثافة وحجم في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ولا سيما في كتابه « العوامل الديمغرافية في تطور الأمة » • وهكذا دواليك في غالبية الشؤون التي طرقها جهابذة الفكر الاجتماعي في الغرب • أما بحوث ابن خلدون في الشؤون العربية الصرف سياسية وأدبية واقتصادية وتاريخية فهي لا تزال مرجع الباحثين المدققين •

بقي أن نشير الى أمر ذي بال يصف طبيعة نظرة ابن خلدون الى الأمور الاجتماعية ويدخل بحثه في نطاق فلسفة العلوم وهو قضية الحتمية • وهي أن هنالك انتظاماً في شؤون العالم اذ تجري حوادثه وظواهره على نسق واحد • ولا بد لكل حادث من سبب • والأسباب المتشابهة تؤدي الى نتائج متشابهة •

يقول ابن خلدون : « انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض • »[٣٠] ونلاحظ أن قوله : على هيئة من الترتيب والاحكام ••• يشف عن النظرة السكونية أو التوازنية • وقوله : واستحالة بعض الموجودات الى بعض يشف عن النظرة التطورية أو الدينامية •

وهكذا يتأمل ابن خلدون تطور الدولة وحياتها فيجد لها أعماراً طبيعية كما للأشخاص ومراحل هذه الأعمار متصلة بنفسيات الأجيال المتعاقبة • ولتقلّب الدول عنده قانون دوريّ مبرم . وبحوثه هذه مرتبطة بالدول التي كانت تنهض وتتعاقب في بلاد المغرب العربي • ويمكن تعقب أشباهها على مستوى انساني أوسع • ومن المعلوم أن مدرسة دركهايم الاجتماعية ألحت على أهمية الحتمية في الظواهر الاجتماعية لكي تسوّغ اقامة علم مستقل لتلك الظواهر التي شأنها في الصفات الحتمية شأن الظواهر الفيزيائية والأمور المادية التي تخضع للضرورة وتسيطر عليها السببية التي هي أساس العلم • هذه الدعوى سليمة وصحيحة في مجال الحوادث التي تجري على المقياس الانساني • ومن الجدير هنا أن نستطرد ولو قليلا لنشير الى أن الحتمية تزول حين ننفذ الى أجزاء المادة الدقيقة على الشكل الذي قرره العالم الفيزيائي الألماني هيزنبرغ حين أبرزما سماه « علاقات الارتياب » التي تجعل اللاحتمية راسخة في نطاق الفيزياء الحديثة • هذا وان كثرة الحوادث تنتهي الى الحتمية الاحصائية التي هي أساس الحتمية التي كان ينوه بها فلاسفة العلوم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • هذا والحتمية لا تزال سائدة في الفيزياء الاتباعية وهي ليست ضرورية لانشاء العلم كما كان يظن الفيلسوف الفرنسي هنري بوانكاري •

* * *

واذا صح أن نناقش قليلا ابن خلدون في قضية الحتمية فاننا لن يفوتنا أن نشير الى باحث حديث وعميق وهو مؤرخ فرنسي نال شهرة واسعة في العصر الحاضر استندت بحوثه التاريخية الى أصول جغرافية وهو فرنان بروديل (١٩٠٢ ــ ١٩٨٥) وانما اشتهر بكتابه «البحر المتوسط» وبسلسلة من الحوليات والمقالات التف حولها طائفة من الباحثين •

ان هذا الباحث يتجاوز حتمية ابن خلدون المحدودة الى ما يمكن أن ندعوه حتمية تاريخية جغرافية • فهو حين يبحث في تاريخ البحر المتوسط يتناول الحضارات الأساسية التي نشأت حوله ويرى أنها تتجاوز الزمن وتنتصر على الوقت • تمضي حوادث التاريخ وتبقى هي مكانها ثابتة رابطة الجأش ضاربة

الجذور في أعماق الأرض التي نشأت عليها • انها لا تموت على عكس ما يدعيه معاصره الشاعر الفرنسي بول فاليري ، بل تبقى على رغم المصائب والكوارث وتنبعث من رمادها عند الحاجة • وهو يقسم حضارات هذا البحر الى ثلاث ويراها كأنها ثلاثة وحوش مستعدة أبداً للتكشير عن أنيابها • انها ثلاث شخصيات متفاوتة موجودة دائماً منذ قرون طويلة ، ذات مصير لا ينتهي • وما الدول بالنسبة اليها الا ألبسة مهرج تظهر بها ثم تتبدل عليه • وهي الحضارة الغربية يتردد المؤلف بين نعتها بالمسيحية أو بالرومانية ، وحضارة الاسلام ، وحضارة العالم الاغريقي أو العالم الأرثوذكسي أي جزيرة البلقان (رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا واليونان) • أما موسكو عنده فهي في الأصل روما الثالثة بعد روما الثانية التي هي القسطنطينية • ولكن موسكو انفكت عن أن تكون القطب المشع للأرثوذكسية فغدا العالم الأرثوذكسي عالماً بدون أب هكذا يقول • ويبدو أن موسكو بعد انهيار الاتحاد السوفياتي تعود الى تلك الأبوّة •

بين هذا العالم الحديث وابن خلدون زيادة على تأكيد الحتمية وتفاوت مداها شبه في النظرة التشاؤمية التي هي أشد ظهوراً عند بروديل • الحضارات عنده هي الحرب والبغضاء ورقعة واسعة من الظلام وهي التي تصنع الحقد وتتغذى به وتعيش عليه • والمستقبل هو لأولئك الذين يتقنون البغضاء ، ومع ذلك فيبقى فيها بصيص من النور اذ هي أيضاً تضحية واشعاع وتكديس للثروات الثقافية وميراث للذكاء(٣١) • أطلنا في تلخيص بعض أفكار بروديل لحداثتها ولتوكيد رؤياها القاتمة •

لنقف قليلا مع فرنان بروديل نتفهم تردده في نعت الحضارة الغربية بين المسيحية والرومانية • ذلك أن المسيحية جاءت الى روما من شرق البحر المتوسط حملها أناس من هذا الشرق وتجشموا في تبليغها العنت والعذاب • ثم إن اقتصاره على اثبات المواجهة والصراع بين مناطق ثلاث يصورها بروديل وحوشاً ضارية فرّاسة على الدوام يدعو الى الشك والتساؤل • أوليس في قلب كل منطقة وحوش يأكل بعضها بعضاً ؟! كم من حروب مروّعة نشبت في أحضان المنطقة الغربية الرومانية على حد تعبير بروديل • مذبحة سان برتلمي احدى الفتن الدينية الطائشة بين البروتستانت والكاثوليك في دولة غربية واحدة في

أواخر القرن السادس عشر • الحرب العالمية النازية اشتعلت شرارتها في أحضان الحضارة الغربية وتجاوزتها وحصدت ملايين من النفوس البشرية • ويح لألبسة التهريج التي يلبسها مهرج ينتمي الى حضارة واحدة لا تصيب الذين ظلموا خاصة • كم تُسبب اليتم والدمار • ربما كان الأجدر أن تسمى ألبسة الحداد لأنها أودت بنفوس نقية بريئة كثيرة لا حصر لها •

أراد بروديل أن يتجاوز الأحداث والدول والتاريخ الى ما وراء التاريخ فانتهى الى الجغرافية • الجغرافية عنده في رأينا هي ميتافيزياء التاريخ •

الحضارة الغربية عند بروديل عاصمتها روما • ولكن روما روحها الحقيقية شرقية • حتى بناؤها على ما زعم الشاعر اللاتيني الكبير فرجيل في ملحمته « الانيادة » قد تم على أيدي حفدة إينياس البطل الطروادي وهم في الأصل آسيويون جاؤوا من طرف الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط وأعانهم في البناء قبائل الاتروسك وهم أيضاً آسيويون •

نحن نرى أن الخلافات والنزاعات التي نشأت على سطح البحر وعلى ضفافه وحوله ان هي الا كالتجعدات التي تظهر على سيمائه عند هبوب الرياح والزوابع. أما مادة البحر تحت التجعدات فهي واحدة • وكما نخشى على الماء من التلوث نخشى على الناس جميعاً من الاحن والمحن والحروب والشقاق • وهذه كلها شرور تتحيّف كرامة الانسان وتبذر الفرقة والتدابر والشنآن ، وتذكّر نوازع العدوان عند الحيوان •

وما ندري أيهما أجدر بالباحث : الالحاح على أسباب الفرقة ودواعي التدابر وعوارض التنازع وتأريث الخصام أو توكيد وشائج الوئام وحوافز الالتئام وتمتين عرى التعاون وتمكين أواصر السلام ؟!

البحر المتوسط الذي اتخذه بروديل عنواناً لكتابه انما وصف بالتوسط كأنه يقوم بالوساطة بين الأقوام ويؤلف بين وجوه نشاطهم ومساعيهم ومقاصدهم زيادة على وجوده وسط بلادهم • ولو أنا بحثنا عن الاختلاف والتمايز بين الناس لوجدناه في البلد الواحد وبين أعضاء الأسرة الواحدة، حتى الأخ وأخيه. لنظهر شيئاً من علمنا أيضاً ! التفاوت واقع حتى بين الوليّ والوليّ في مذهب التصوف

اذ لا يمكن أن يكونا في حال واحدة ، ونجد التفاوت بين الكهرب والكهرب في الفيزياء الدقيقة الحديثة اذ لا يمكن أن يكونا في حالة كوانتية واحدة حسب مبدأ باولي • ولكن التشابه هو الأعم بين الناس • والتفاوت سبب التعاون والتتامّ لا سبب التشادّ والانفصام •

إن كانت تلك الحروب الغابرة في العهود الخالية الا مرحلة من مراحل تاريخ الانسانية الطويل • ألم يَئِنْ لذلك التاريخ في العصر الحاضر أن يبشّر بالتقارب والعدل والتعاون مهما اربدّت الآفاق واعترضت العقاب وتعددت الصعاب ؟!

لنتخيل مؤرخاً آخر أو باحثاً يتجاوز التاريخ والدول والأحداث الى الشعوب التي كانت هي مادتها ويستشف آمال تلك الشعوب وأحلامها وما تنبض به قلوبها من حب وتعلق بالأمن وميل الى السلام والتعاون في كل منطقة من مناطق الأرض كلها • ان هذا المؤرخ المتخيل يصل الى النسغ الفكري العلوي الساري في أعماق الانسان والرافع له من درك الوحشية الى أعلى درجات الوجود • هذا النسغ حمل شعلة النور من الشرق الى روما مع القديسين بولس وبطرس في الدين مثلا • إنه حمل الأبجدية مع التجار الفينيقيين الى اليونان وغيرهم في تيسير الكتابة مثلا آخر • حمل الأرقام العربية والرياضيات مع ليوناردو وفيبوناتشي الى أوربة • حمل الفلسفة الرشدية الأرسطاطالية الى الغرب • حمل حتى السير الشعبية أمثال رواية ألف ليلة وليلة فروحت نفوساً وألهمت شعراء من أشهرهم كلديرون دولابركا أكبر شاعر مسرحي اسباني ولدمع القرن السادس عشر ولاسيما في مسرحيته « الدنيا حلم » أخذ هيكلها من حكاية اليقظان النائم في تلك الرواية الشعبية • أوليست عندئذ ألبسة التهريج أو الحداد هي التراب ، والجوهر الخالد الموحد بين الجميع هو الفكر • نذكر كلمة الرسول العربي : « كلكم لآدم وآدم من تراب • لا فرق بين عربي وأعجمي الا بالتقوى » • التقوى في رأينا هي الفكر الحق الذي ينشد العلاء ويجسد القيم الرفيعة في السياسة والعلم والفن • أصوات الثورة الفرنسية التي تنادي بالحرية والمساواة والاخاء ما تزال ترن في آذان الأجيال التي تعرف حسن الاصغاء • مهما كشرت أنياب الوحوش وحوش المصالح في كل قطر وفي كل مجتمع فلا ننس بسمات ثغور الحسان ونظراتهن الرانية

نحو أولادهن وبعولتهن بما يلهب الأفئدة بالمحبة ويحفزها نحو العمل والتعاون والتفاهم والسلام على الرغم من زلازل الفتن والحروب وتضارب المصالح والجيوب واضطغان الصدور والقلوب ·

الحب كما تنوه به الديانتان السماويتان العظيمتان المسيحية والاسلام هو الاله المشترك بين المؤمنين كافة · المؤرخ أو الباحث الذي تخيلناه مقابل بروديل يرى عندئذ أن النور لا مناطق الأرض وتلالها هو الميتافيزياء الحق لكل بحث عميق نافذ · والتفاؤل هو الموقف الموفق في الدياجير المهلكة المطيحة ·

نصل الآن الى الخاتمة : قلم ابن خلدون قلم العالم المتأمل الناضج الموضوعي الملم بظواهر الأمور والنافذ الى بواطنها · ومقدمته الشهيرة خزانة علم واسعة حافلة بالآراء الدقيقة الشاملة أحياناً والخاصة بالمغرب العربي أحياناً أخرى ·

وقلم بروديل قلم مؤرخ جغرافي فنان · اذا قرأ المرء ما كتبه استجاد الأسلوب والطرافة وبراعة التعبير يمد كل ذلك علم غزير واطلاع واسع وترصعه لقطات تاريخية متألقة · وكأن ما كتبه ملحمة أبطالها حضارات متطاحنة لو نظرنا الى هؤلاء الأبطال من كوكب آخر لاستحقوا عندئذ تسميتهم بالمهرجين ·

والآن بعض التمهل مع ابن خلدون أبي زيد نخاطبه بأبيات شعرية تحاكي ديباجة شعره المتأنق في بعض الأحيان :

أبا زيد بحوثك كاللآلي ... مواطنها بأعماق البحار
سواي يردد الأخبار عنها ... ويعثر حين يمشي في خبار
ولكني أغوص بكل لج ... لأصطاد الطريف من المحار
أفصلهن بالقول المصفى ... وأعرضهن في وضح النهار
وان لاح التشاؤم في شؤون ... جنحت الى التفاؤل باختيار
ألا ان المحبة خير نهج ... وحب العلم اكسير الديار
وما أحلى الحوار مع الأحبا ... هلموا يا أحبّا للحوار

● محاضرة القيت في المركز الثقافي الفرنسي في ٢ آذار ١٩٩١ ·

□ الحواشـي :

١ ـ احياء علوم الدين ـ الغزالي ج ١ ص ٢٦ ٠
٢ ـ أدب الدنيا والدين ـ الماوردي ـ مطبعة السعادة مصر ـص ٥٣ ٠
٣ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٣٧٨ ٠
٤ ـ ص ٢٥٢ نعتمد نسخة علي عبد الواحد في جميع الاحالات الى المقدمة ٠
* ـ ص ٢٥٣ ٠
٥ ـ ص ٨٥٩ ـ ٨٦٠ ٠
٦ ـ ص ٨٦٢ ٠
٧ ـ ص ٨٦٧ ٠
٨ ـ ص ٨٦٨ ـ ٨٦٩ ٠
٩ ـ ص ٨٦٣ ٠
١٠ ـ ص ٨٦٥ ٠
١١ ـ ص ٨٩٣ ـ ٨٩٨ ٠
١٢ ـ ص ٨٦٥ ٠
١٣ ـ ص ٩٩٠ ـ ٩٩١ ٠
١٤ ـ ٨٧١ ـ ٨٧٥ ٠
١٥ ـ فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كمـا للأشخاص ص ٤٨٥ ـ ٤٨٨ ٠
١٦ و ١٧ و ١٨ ـ فصل في وفور العمران آخر الدولة ٧٠٩ ـ ٧١٠ ٠
١٩ ـ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده ص ٨٧٦ ـ ٨٨١ ٠

20 — Otto Effertz, Théorie ponophysiocratique de la population, Revue d'économie politique. 1914. Pierre Fromont. Démographie Economique, Payot, 1947.

وكتابنا في علم السكان ، جامعة دمشق ١٩٥٩ ٠

٢١ ـ ص ٢٥٨ ٠
٢٢ ـ ص ٢٦١ ـ ٢٦٥ ٠
٢٣ ـ ص ١٠٩٨ ٠
٢٤ ـ مهد الحضارة في الشرق الأوسط : محاضرة للدكتور جورج سارتون ٠ ترجمـة السيـدة فاطمـة عصـام صبري ، التراث العربي ـ العدد المزدوج(٣٥ ، ٣٦) ١٩٨٩ ٠
٢٥ ـ ص ٢٢٠ ٠
٢٦ ـ المصدر نفسه ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ٠
٢٧ ـ المصدر نفسه والصفحة ٢٢٢ ٠

28 — Marcel R. Reinhard et André Armengaud, Histoire de la Population Mondiale, Ed. Montchrestien, 1961, p. 26.

29 — Pierre Guillaume et Jean Poussou, Démographie Historique, Librairie A. Colin, 1970, p. 39.

٣٠ ـ المقدمة ص ٣٥٢ ٠
٣١ ـ انظر ترجمة جزء من كتابه الى العربية بعنوان «البحر المتوسط ـ المجال والتاريخ » بقلم يوسف شلب الشـام ٠ منشورات وزارة الثقافة دمشق ـ ١٩٩٠ ٠